

د. مرسللي عبد السلام: مسألة اللفظ والمعنى في ميزان النقد - قراءة في الموقف النقدي لعبد الملك مرتاض -.

مسألة اللفظ والمعنى في ميزان النقد

قراءة في الموقف النقدي لعبد الملك مرتاض.

The question of form and meaning in the balance of criticism
A reading of the critical position of Abdul Malik Murtadhe.

مرسللي عبد السلام

أستاذ محاضر "أ"

جامعة سعيدة - الدكتور مولاي الطاهر

morsli_abdou@yahoo.com

تاريخ الإرسال: / .. / ..	تاريخ القبول: / .. / ..	تاريخ النشر: / .. / ..
ملخص: تتناول هذه الدراسة مسألة "اللفظ والمعنى" في الفكر العربي القديم والحديث، على اعتبار أنها قضية تمثل بحق جوهر الإشكالات التراثية والحداثية في الدرس العربي، حيث احتدم النقاش من حولها من قبل النحاة والبلاغيين والنقاد والأصوليين والمناطقة... هؤلاء جميعا تبخوا في شأنها مواقف متباينة، بين منتصر للفظ، أو منتصر للمعنى، أو جامع بينهما. وهذا من أجل تحديد مزية كل طرف فيها في إعطاء النص الأدبي قيمته الفنية. من هذا راح الخطاب النقدي الجزائري يبحث عن وشائج القربى لتعزيز شرعية التراث في الممارسة النقدية الحداثية لما أثارته هذه المسألة من زوبعة معرفية في الأوساط البلاغية آنذاك، وفي الأوساط اللغوية والنقدية في وقتنا الحاضر، ويمكن للدارس أن يبرز الاتجاهات المتباينة للنقاد العرب القدامى بخصوص هذه الثنائية، مع تبيان الموقف النقدي لـ "عبد الملك مرتاض" من تلك الاتجاهات، باعتبار أننا إذا نظرنا إليها بعين حداثية نجدها تمثل بحق قاعدة من القواعد المهمة التي أرسى من خلالها النقد الأدبي المعاصر دعائمه.		

الكلمات المفتاحية: اللفظ - المعنى - التراث، الحداثة - النص الأدبي.

Abstract: This study deals with the question of "form and meaning" in ancient and modern Arabic thought, considering that it is a question that truly represents the essence of traditional and modern problems in the Arabic lesson, while the debate surrounding it raged on the part of grammarians, rhetoricians, critics, fundamentalists and logicians. All adopted it. Different positions, between winner of the word, or winner of the meaning, or a combination of both. This is to determine the merit of each party to give the literary text its artistic value.

From there, the Algerian critical discourse began to look for kinship links to strengthen the legitimacy of the heritage in modern critical practice, because this question generated a whirlwind of knowledge in the rhetorical circles of the time, and in the linguistic and critical circles of the time. With the clarification of the critical position of "Abdul Malik Murtad" from these trends, considering that if we look at them with a modern eye, we find that they really represent one of the important rules through which contemporary literary criticism laid its foundations.

Keywords: form- meaning – heritage- modernity- literary text

توطئة:

منذ نشأة الإنسان، وهو يعمل فكره لتفسير الظواهر انطلاقاً مما يحيط به ويشاهده في هذا الكون. وتعدّ مسألة (الثنائية) إحدى المسائل التي واكبت هذه النشأة. تطوّرت مع تطور تفكيره، وصار الإنسان -من خلالها- يفسّر الوجود والموجودات انطلاقاً من ثنائية الحضور والغياب، فالحياة تقابلها موت، والروح يقابلها جسد، من هذا تعتبر مسألة "اللفظ والمعنى" واحدة من تلك الثنائية الأعم، التي تجلّت بوضوح حينما شغل الإنسان فكره بموضوع اللغة والأدب.

إنّ، فهذه القضية ضاربة بجذورها في الفكر البشري منذ القدم، تناولها اليونان والهنود والعرب بالتأمّل والمدارسة. حيث مع مطلع النصف الثاني من القرن الهجري أضحت واحدة من

القضايا الأساسية في تاريخ نقدنا الأدبي، شغلت مع نظيراتها بال قدماء العرب من النقاد واللغويين والبلاغيين، الذين تمكنوا بإسهاماتهم من ملامسة إشكاليات البحث الدلالي، وعلى غرار ذلك "أنشأوا نظريات نقدية رصينة تتعلّق بعمود الشعر، ونظرية اللفظ والمعنى، كما نقرأ ذلك لأبي الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي في كتابه عيار الشعر أو المرزوقي في مقدمة كتاب الشعر والشعراء، وهي المقدمة التي زعمت الموسوعة العالمية أنها أصل النقد البتوي، وأنّ العرب ببعض ذلك عرفوا البتوية قبل الغربيين، باثنتي عشر قرناً [...]"، ومسألة النظم كما نظر لها عبد القاهر الجرجاني، ومسألة المعاني والأفكار بالقياس إلى الأفكار كما أوما إليها أبو عثمان الجاحظ في كتابه الحيوان ونظرية التواصل كما عالجها في كتابه البيان والتبيين...¹.

والدّارس ههنا، يقف أمام قضية "اللفظ والمعنى" التي لا تقلّ شأنًا عن -العلامة بنوعيتها-؛ لأنها تمثّل بحق جوهر الإشكالات التّراثية والحداثيّة في الدّرس العربي، التي تناولها -كما سبق وذكرنا- النّحاة والبلاغيون، وكذلك الأصوليون والمناطقية بشكل لافت للانتباه؛ إذ نلّفها تمثّل "زوجا إشكاليا في التّراث على نحو عام، واللّغوي والبلاغي والنّقدي على وجه الخصوص"². وهو أمر عزّز النقاش من حولها، وأدّى بهؤلاء إلى تبني مواقف متباينة من أجل تحديد مزية كل طرف فيها في إعطاء النص الأدبي قيمته الفنية.

إنّ المنحى الذي سار عليه علماؤنا بخصوص ثنائية "اللفظ والمعنى" غلب عليه الطّابع العقدي، "فكلّ ما نشأ وما حدث من أقوال وآراء حول هذه القضية إنّما مرده الإعجاز القرآني"³، وبما أنّ مدار النقد الأدبي في هذا مرتبط بمضامين فكرة الإعجاز، فإنّ النزاع بين النقاد يتجلى في معرفة أي طرف من هذه الثنائية يكمن فيه الإعجاز:

¹ - عبد الملك مرتاض: نظرية القراءة، (تأسيس للنظرية العامّة للقراءة)، دار الغرب للنشر والتّوزيع، وهران، الجزائر، 2003، ص.ص: 19-20.

² - طارق النعمان: اللفظ والمعنى بين الايدولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1994، ص.ص: 7. 8.

³ - صلاح الدّين زرال: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدماى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، 1429 هـ - 2008 م، ص: 68.

أفي اللفظ وتأليفه؟، أم في المعنى ودلالته؟، أم فيهما معا؟.

انطلاقاً من هذه الإشكالات، تباينت مواقف النقاد قديماً وحديثاً بخصوص ثنائية "اللفظ والمعنى"، بين منتصر للفظ، أو منتصر للمعنى، أو جامع بينهما. من هذا راح الخطاب النقدي الجزائري يبحث عن وشائج القربى لتعزيز شرعية التراث في الممارسة النقدية الحديثة لما أثارته هذه المسألة من زوبعة معرفية في الأوساط البلاغية آنذاك، وفي الأوساط اللغوية في عصر الحاضر، ويمكن للدّارس أن يقف عند كل موقف ليبرز رأي كل من النقاد العرب القدامى، وكذلك موقف الناقد عبد الملك مرتاض تحديداً من هذه الثنائية، على اعتبار أننا إذا نظرنا إليها بعين حديثة نجدها "تمثل بحق قاعدة من القواعد المهمة التي أرسى من خلالها البحث السيميائي المعاصر دعائمه"¹.

يكاد يجمع المحدثون رأيهم على "أنّ الجاحظ كان أولّ بلاغي أو ناقد عربي أثار جدلية اللفظ والمعنى"² إثارة واسعة، ومن هنا "لا نستبعد أن تكون مكانة هذه الثنائية -اللفظ والمعنى- في تفكير الجاحظ الأصل في تولّد مسلك في البحث يتمثل تقسيم مختلف المساهمات البلاغية وتصنيفها طبق موقف أصحابها من اللفظ والمعنى..."³.

يمكن للدّارس -في هذا الصّدّد- أن يقف على ثلاثة اتجاهات، كانت بمثابة سجل دار بين أقطاب النقد العربي القديم، تباينت من خلاله مواقفهم وآرائهم، ما أدّى إلى إثراء الدّرس العربي البلاغي واللغوي بآراء نقدية حسيّة، نهل منها النقاد العرب المحدثون، وقارنوها مع صميم البحث الغربي، فوجدوا أنّ ما أثاره العرب القدامى من حول قضية اللفظ والمعنى ومن قبلها

¹ - قادة عقاق: في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي، مخبر النقد والدراسات الأدبية واللسانية، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، سيدي بلعباس، مكتبة الرشاد للطبع والتوزيع، الجزائر، 1425هـ-2004م، ص: 62.

² - عبد العزيز بن حمودة: المرايا المقعّرة (نحو نظرية نقدية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، ع272، أغسطس 2001، ص: 273.

³ - حمّادي صمود: التّفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره، إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، 1981، ص: 272.

د. مرسلې عبد السلام: مسألة اللفظ والمعنى في ميزان النقد - قراءة في الموقف النقدي لعبد الملك مرتاض -.

العلامة بنوعيتها، قد شكّلت مدار الدرس النقدي الحديث والمعاصر، وتبيّن للباحثين العرب عموماً والمغاربة منهم على وجه الخصوص، أنّ هذه القضايا قد لامست طروحات كثيرة مما توصّلت إليه نظريات النقد الغربي. وعليه، سنتطرق لهذه الاتجاهات من خلال وقوفنا عند طرح العربي القديم، فضلاً عن إبراز الموقف النقدي لعبد الملك مرتاض في السياق نفسه.

- الاتجاهات النقدية لثنائية اللفظ والمعنى (قديمًا وحديثًا):

- الاتجاه الأول:

يدعو أصحاب هذا الاتجاه إلى الإغلاء من شأن اللفظ، والتعصب له، ويمثله ثلّة من علماء العرب القدامى، كالجاحظ (ت.255هـ) وأبي هلال العسكري (ت.395هـ)، وعبد الرحمن بن خلدون (ت.808هـ)، وغيرهم. لقد أثار هذا الاتجاه مساءلة معرفية ذات بال، تمحورت حول أهمية اللفظ في تحقيق المعنى، وقد تزعم هذا الاتجاه أبو عثمان الجاحظ "بل وقد سبق النّقاد في بيان هذه المفاضلة، وكان يذهب في الغالب إلى تفضيل اللفظ عن المعنى"¹ في مواطن كثيرة من كتبه، ونلفيه في كل شق منها "يرفع شأن اللفظ، ويغضّ من شأن المعنى، بل إنه ليسقطه إسقاطاً، فليس له فضل ولا مزية، ولا قيمة فنية"². إذن، في الوقت الذي نظّر فيه النّقاد من معاصريه وسابقيه إلى الشعر كأنّه نتاج فلسفي، وأنّ النّظر فيه إلى المعنى أكثر من النّظر إلى البنية الخارجية عدّه الجاحظ بماء أفاظه، وجمال نسجه وحسن إيقاعه، والثّابت من هذا، أنّه يرى "المعاني مطروحة في الطّريق يعرفها العجميّ والعربيّ، والبدويّ والقرويّ، وإنّما الشّأن في إقامة الوزن وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وفي صحّة الطّبع وجودة السّبك، فإنّما الشعر صناعة وضرب من النّسج، وجنس من التّصوير"³، يجد الدّارس في هذا المقام أنّ الجاحظ يضع الأنافة

¹ - علي زوين: منهج البحث اللّغوي بين التّراث وعلم اللّغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، 1986، ص: 40.

² - شوقي ضيف: في الأدب والنّقد، دار المعارف، القاهرة، 1999، ص: 65.

³ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، تح. عبد السلام هارون، ج3، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1385هـ - 1965، ص: 131-132.

د. مرسلې عبد السلام: مسألة اللفظ والمعنى في ميزان النقد - قراءة في الموقف النقدي لعبد الملك مرتاض -.

والجودة والجمال للألفاظ، ونفهم من هذا الطرح أيضاً، أنّ اللفظ عنده سابق عن المعنى، وهي رؤية يعتبرها "عبد الملك مرتاض" حداثيّة جدّاً، وقد سبقت عصرها بأكثر من عشرة قرون، فالمدرسة النّقديّة الجديدة هي وحدها الآن التي فصلت بعد قرون متطاولة من الجدل العقيم: هل المضمون أولى في العملية الإبداعية أم الخطاب؟ في القضية بعنايتها القصوى بالشكل الخارجي للنص الأدبي وهو الخطاب¹.

يخذو أبو هلال العسكري حذو أستاذه، من خلال موقفه الداعم لمنزلة اللفظ، فهو يرى أنّ سلامة الكلام تكون باختيار اللفظ، حيث يقول: "الكلام أيدك الله. يحسن بسلاسته، وسهولته، ونصاعته، وتخير ألفاظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، وليس مقاطعه، [...]، حتى لا يكون في الألفاظ أثر، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطالعه، وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقاً، وبالتحفظ خليفاً"². يتّضح للدّارس أنّ أبا هلال العسكري يعلي من شأن اللفظ، وينتصر له على حساب المعنى، لأنّ هذه الأخيرة - حسبه - لا يراد منها سوى الدّقة والصّواب. نستشف من هذا الطرح أنّه يقدّم الصياغة اللفظية في القول على المعنى، وهو ما يؤكّده بقوله: "وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحّة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف"³. يعلّق أحد الباحثين على هذا التّعصب والانتصار للفظ بالقول على أنّ أبا هلال العسكري "معني بالهيكل وأناقته، ومفتتن بالألفاظ وإطارها باعتبارها الوسائل التي يتفاضل بحسن اختيارها الأدباء"⁴. يجد

¹ - ينظر: عبد الملك مرتاض: بنية الخطاب الشعري (دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية)، دار الحداثة، لبنان، بيروت، ط1، 1986، ص: 23.

² - أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري: كتاب الصنائع، تج. علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1971، ص: 61.

³ - أبو هلال العسكري: كتاب الصنائع، ص. ص: 63-64.

⁴ - محمد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي (رؤية قرآنية معاصرة)، موسوعة الدراسات القرآنية (9)، دار المؤرخ العربي، بيروت-لبنان، (دت)، ص: 20.

الدارس من قول أبي هلال أن ما تناوله من كشف وإيضاح حول مكانة اللفظ عند الأدباء قد تجلّى فيما قرّره الجاحظ. وعليه، لا نكاد نقع على جديد لديه. إلا أنهما يمثلان موقفاً ينم عن قناعة فضلة اللفظ على المعنى.

لا نكاد ننأى عن هذا الاتجاه حتى نجد "عبد الرحمن بن خلدون" يدعم مقولة "الجاحظ" بقوله: "صناعة الكلام نظماً ونثراً، إنّما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنّما المعاني تبع لها وهي أصل [...]"، والذي في اللسان والنطق، إنّما هو الألفاظ والمعاني، فهي الضمائر¹. وقد استحسن عبد الملك مرتاض ما ذهب إليه الجاحظ وابن خلدون فيما يتعلّق بهذه المسألة، فهما يتقاطعان في القول الذي "يجسد وجهها آخر من وجوه حداثة التراث في النقد العربي الذي كان يقرّ في كثير من نظرياته [...]" أن الألفاظ هي الأساس والأصل واللّب والوجه [...]. إذ لم تكن المعاني إلاّ تبعاً لها في تصوّر ابن خلدون، وإذ لم تكن هذه المعاني إلاّ مطروحة في الطّريق في تصوّر أبي عثمان الجاحظ².

إنّه من خلال هذا الطّرح، يتبدّى لنا أن "مرتاضاً" في كتاباته خلال مرحلة التأسيس والتّجريب كان ينتصر للفظ على حساب المعنى معتبراً أن "منظور الجاحظ وابن خلدون حدائياً جدّاً لمحاولتهما فصل اللفظ عن المعنى، أي جعل اللغة هي التي تقوم بنفسها في نسج الكتابة، وأنّ المدار على اللفظ لا على المعنى لدى النسيج اللغوي"³. فما أبداه الباحث عبد الملك مرتاض من استحسان لرؤية الجاحظ وابن خلدون يبرر أمر تأثره الواضح بطروحات الجاحظ، ولعلّ تواجد آراء هذا الأخير وأحاديثه في ثنايا كتبه، لدليل واضح على محاولة الباحث الجمع بين الحداثة والتّراث من خلال تصوّرات الجاحظ وآراء بعض أساطين الحداثة الغربيّة. وقد أكّد ذلك بعقد مقارنة بين الجاحظ وجان كوهين بقوله: "قائظوا إذن كيف يلتقي جان كوهين وهو ناقد من

¹ - عبد الرحمن ابن خلدون: المقدّمة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967، ص.ص: 1110-1111.

² - عبد الملك مرتاض: الكتابة من موقع العدم، مساءلات حول نظرية الكتابة، دار الغرب للنشر والتّوزيع، وهران، الجزائر، 2003، ص: 39.

³ - المرجع نفسه، ص: 39.

أصحاب المدرسة المعاصرة، مع أبي عثمان الجاحظ على الرغم مما يفصل بينهما من زمان ومكان وحضارات، فكوهين لا يحفل بالمعاني لأن الشاعر في رأيه شاعر لا بما يفكر أو يحس، ولكن بما يقول ويبدع من ألفاظ، ثم بفضل الطريقة التي يقول بها، لأن الشعر، في رأيه ألفاظ قبل أن يكون معاني [...]. والألفاظ التي نريدها هنا هي ذلك النسيج البديع الذي كان أبو عثمان يتحدث عنه، وهي أيضا تلك العبقرية المتجسدة في كيفية الإبداع التي يتحدث عنها جان كوهين¹.

لقد أثمر المقارنة التي اعتمدها "مرتاض" بنتائج ذات بال، "فهي تبرز أن نتاج الجاحظ قد انطوى على سمات كثيرة من البحث الشكلي الحداثي؛ فالجاحظ في تعريفه للشعر، ركز على (تخير اللفظ)، و(سهولة المخرج)؛ وتخير اللفظ الذي أشار إليه الجاحظ، هو ما يعرف لدى المنظرين والنقاد ب: (البنية الخارجية للنص)"²، وهي بهذا - و كما أوما إليها "أبو عثمان" - ليست "مجرد صيغ وقوالب لغوية وصرفية، كالأطر الفارغة، والطبول الباردة، ليس لها حركة وليس فيها حياة، وإنما البنية التي نمأ إليها هي: أنها حياة جديدة تولد في قوالب معجمية قديمة، أي ألفاظ منقورة في المعاجم اللغوية، وإن المبدع ليعمد إلى البنية (نقصد هنا بالذات إلى البنية الخارجية التي تتصرف إليها الألفاظ والجمل) فيحملها من المعاني والقيم، ويلبسها من البهاء والجمال، ويضفي عليها من الظلال الشعرية ما يجعل المتلقي يشعر بأن هذه البنية كأنها لم يصنعها أحد من قبله، فهي ابنة إبداعه وحده، فكان البنية هي منح الشخصية الذاتية للدوال"³.

إنما يبرر الذي ذهب إليه مرتاض من مقارنة بين طرحين متباعدين في الزمان، ومتباينين في الثقافة والمرجعيات، هو تقارب رأيي الجاحظ وكوهين في تحديد مفهوم الشعر⁴ إن هذه المقارنة التي عمد إليها الناقد عبد الملك مرتاض، تتم عن ذلك التأثر بالجاحظ من جهة، والقناعة

¹ - عبد الملك مرتاض: بنية الخطاب الشعري، (دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية)، ص.ص: 17-18.

² - عبد السلام مرسللي: تجليات التراث في الخطاب السيميائي عند عبد الملك مرتاض، أطروحة ماجستير (مخطوط)، قسم اللغة العربية وآدابها، المركز الجامعي د. مولاي الطاهر، سعيدة، 2006-2007، ص: 136.

² - المرجع نفسه، ص.ص: 10-11.

⁴ - ينظر: نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج2، دار هومة للنشر، الجزائر، 1997، ص: 33.

د. مرسلې عبد السلام: مسألة اللفظ والمعنى في ميزان النقد - قراءة في الموقف النقدي لعبد الملك مرتاض -.

الذاتية من جهة أخرى، وهو ما ترجمه إجراء من خلال تخصيص فصل كامل من كتابه "بنية الخطاب الشعري" للبنية، والتي تناول فيها الخصائص المورفولوجية الخالصة للخطاب الشعري متوسلاً بالإحصاء. فنجاح الباحث في إظهار التقارب والتلاقي والتقاطع بين آراء الجاحظ وكوهين "ليس بأمر عسير على ناقد مسلح بثقافة تراثية مكينة ومتشبع بثقافة غربية حديثة، حيث إننا نلفيه يتبنى هذه النظرية ويضفي عليها مسحة عربية لتظهر في صورة جيدة، ومن خلال ذلك يظل الاعتبار في الشعرية لدى الباحث مرتاض قائماً على النسيج الشعري وبنية اللغة لا على المعاني..."¹ وهذا ما يتجلى بالضبط - في رأي جان كوهين.

- الاتجاه الثاني:

يعدّ عبد القاهر الجرجاني (ت.471هـ) رائد اتجاه المعنى في النقد، من خلال ما بثّه في ثنايا كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) حول قضية "اللفظ والمعنى". فهذا الاتجاه ينظر إلى أسبقية المعنى على اللفظ، ويتزعمه "عبد القاهر الجرجاني" - كما ذكرنا - الذي يرى أنّ المدار في الكلام على المعاني لا على الألفاظ، كون هذه الأخيرة مجرد هياكل تقتفي آثار معانيها، ففي نظره "الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف راجعة إلى المعاني، وإلى ما يدّل عليه بالألفاظ دون الألفاظ نفسها، لأنّه إذا لم يكن في القسمة إلا المعاني والألفاظ، وكان لا يعقل تعارض في الألفاظ المجردة إلا ما ذكرت لم يبق إلا أن تكون المعارضة معارضة من جهة ترجع إلى معاني الكلام المعقولة دون ألفاظه المسموعة"². لقد أدرك هذا الناقد ببراعة فذة سرّ العلاقة بين اللفظ والمعنى، وأنّ المدار - في ذلك - على المعنى لا اللفظ، وفي هذا معارضة لمزية الصياغة اللفظية في القول التي أسّس لها أبو عثمان الجاحظ، "فقد هذب عبد القاهر من المفاهيم المرتجلة

¹ - عبد السلام مرسلې: تجليات التراث في الخطاب السيميائي عند عبد الملك مرتاض، ص: 142.

² - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 402.

لدلالة الألفاظ والمعارف وأقامها على أصل لغوي وعلمي رصين¹، ورأى أن الألفاظ ماهي في الأصل "إلا خدم للمعاني"².

لقد وفق الجرجاني في تشييد قانونه لغوي، الذي يعرف بنظرية النظم، فقد قال به تارة، وبالتأليف تارة أخرى، ليغدو النظم عنده "عبارة عن العلاقة بين الألفاظ والمعاني، وأنها تتأسست دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"³. يقوم القانون اللغوي (النظم) للجرجاني على أساس علم النحو الذي "يعنى ببناء الكلمة وإعرابها، ومعرفة هذه الصيغة، وإن كانت منصبة على اللفظ، فإنها ترتبط بمعنى اللفظ في وضعه بمكانه من المعنى المراد، لأن المعاني لا يحل إبهامها ما لم يقصد إليها من خلال الألفاظ، والألفاظ لا يفهم مؤداها مالم تضبط صياغة وتصريفاً ونحواً بناء وإعراباً على حدّ سواء، وهما متعاونان معاً على كشف العلاقة التي عبر عنها بالنظم"⁴ أو بالتركيب.

يجد الدّارس أن ما ذهب إليه الجرجاني في قانونه اللغوي، يتقاطع كثيراً مع البحوث اللسانية والسيمايائية، وهو بالفعل ما توصل إليه أحد الباحثين من أن "عبد القاهر الجرجاني" يتقاطع بطرحه هذا مع "فرديناند دي سوسير" في جملة من النقاط تنحصر في مصطلح تأليف/ تركيب، وفائدة الكلمة داخل التركيب وليس في حالة إفرادها، وفي الصورة الكلامية⁵.

هذا، ولم يتوقف الشيخ عند هذا الحدّ، بل استطاع أن يميّز بين صنفين من المعنى، وبدأ بشرح فكرته، "أن نقول المعنى ومعنى المعنى، نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي

¹ - محمد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي - رؤية قرآنية-، ص: 37.

² - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق: الدكتور هلموت ريتز، مطبعة وزارة المعارف، استانبول، 1945م، ص: 05. وينظر: حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي - رؤية قرآنية-، ص: 37.

³ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 40. وينظر: محمد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي - رؤية قرآنية-، ص: 37. وينظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 40.

⁴ - نفسه، ص: 38.

⁵ - ينظر: محمد عباس: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1999، ص:

د. مرسلې عبد السلام: مسألة اللفظ والمعنى في ميزان النقد - قراءة في الموقف النقدي لعبد الملك مرتاض -.

تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى، أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفرض بك ذلك المعنى إلى معنى آخر¹. فهذه الزوابع المعرفية التي أثارها "الجرجاني" انتهت به إلى تأسيس نظرية "معنى المعنى" في الكلام، وقد تلقفها العالمان "رينشارد" و"أوجدن" وأحدثا بها ضجة من خلال كتابهما "معنى المعنى" The meaning of the meaning، الذي ألفاه عام 1923، منطلقين من إشكالية ماهية المعنى لا عن تطورها².

ويدلي باحث مغربي آخر دلوه بالبحث في جوهر العلاقة بين طرح "الجرجاني" وما جاء في كتاب العالمين "رينشاردز" و"أوجدن" ليرز أن الطرحين يلتقيان في نقطتين هامتين تعتبران أساسيتين في فهم العملية الإبداعية، وهما في قولهما بأن المعنى الظاهري يخص معنى خفياً لا يحصل إلا بالتدبر وإمعان النظر، وهو المعنى الذي يحاول كل ناقد كشف أسرارها، أما النقطة الثانية فهي ربطهما التجربة الشعرية بالتجربة النفسية، وهذه النقطة تعتبر أساسية ورائدة بالنسبة للجرجاني الذي لم يكن يعرف علم النفس ودراساته حول الإبداع³ ولعل خير مثال استحضره الشيخ "عبد القاهر الجرجاني" هو "نؤوم الضحى"⁴.

ما يستخلصه القارئ هنا، هو أن الترابط الدلالي بين الألفاظ ومعانيها يقوم فيما يراه "الجرجاني" على مبدأ أسبقية المعاني الذهنية على الألفاظ، كون المعاني تعرف وتذكر أولاً، ثم يتواضع أهل اللغة على الألفاظ الدالة عليها، وهذا عكس ما ذهب إليه اللفظيون من خلال طرحهم الذي بات يشكل "خطراً على النقد والبلاغة معاً: أمّا على المستوى النقدي فإن الانحياز إلى اللفظ قتل الفكر الذي يعتقد الجرجاني "أنه وراء عملية أدق من الوقوف عند ميزة لفظة أخرى؛ أمّا على

¹ - المرجع نفسه، ص: 258-259.

² - عبد الجليل منقور: علم الدلالة، ص: 154.

³ - ينظر: حسين خمري: الظاهرة الشعرية العربية (الحضور والغياب)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001، ص: 192.

⁴ - ينظر: عبد الملك مرتاض: في نظرية النقد، ص، ص: 218-219.

د. مرسلې عبد السلام: مسألة اللفظ والمعنى في ميزان النقد - قراءة في الموقف النقدي لعبد الملك مرتاض -.

المستوى البلاغي فإنّ الجرجاني لم يستطع تصوّر الفصاحة في اللفظة وإنّما هي في تلك العملية الفكرية التي تصنع تركيباً من عدّة ألفاظ¹.

وقد نذهب -بتقديرنا المتواضع- إلى أنّ "مرتاض" حينما نعت "الجاحظ" و"ابن خلدون" بالحدثين جداً؛ كونهما من أنصار اللفظ، فإنّ معنى ذلك أنّ "الجرجاني" ومن سار على نهجه - من أنصار المعنى - ليسوا كذلك، باعتبار أنّ المعاني لا تأتي في تصوّره إلّا "تحت مفعول الألفاظ وتأثيرها ودلالاتها"²، وفي هذا موقف نجد من يختلف مع "مرتاض" في تصنيفه للبلاغيين العرب القدماء إلى تقليديين وحدثيين من منطلق طروحاتهم المتأبينة التي تتفق مع "مرتاض" أنّها تختلف في التفاصيل والمنطلقات، لكنّها تنتهي في النهاية إلى مقولات، هي أشبه ما تكون بتلك التي تشكّل النظريات الحديثة.

فما ذهب إليه الناقد عبد الملك مرتاض "لا يسعنا إلّا أن نعتبره نقداً انطباعياً تقليدياً، الذي لم يستطع التخلّص منه حتى وهو في مرحلة الحداثة، لأنّنا متفقون أنّ النقاد العرب القدماء قد لامسوا كثيراً من المسائل النقدية، هي الآن من صلب مواضيع الحداثة الغربية، من هذا فقد أثار الناقد العربي القديم كثيراً من القضايا، فنلّف بعضاً من الحداثة، ونلّف بعضاً الآخر بعيدة كلّ البعد عن الحداثة؛ أي أنّنا قد نجد الناقد حديثاً في مسألة ما، وتقليدياً في مسألة أخرى"³.

ف"عبد القاهر الجرجاني" -كما رأينا- قد انصبّ اهتمامه على المعنى، ومعنى المعنى، لدرجة أنّه استطاع تأسيس نظرية، وهي التفاتة لا يختلف فيها اثنان، من هذا فإنّ الناظر لهذا التراث يجده "توليفة عجيبة من النظريات النقدية المتعدّدة والمتأبينة في الوقت ذاته، وهي تأتي متداخلة في المؤلفات النقدية بحيث يصعب على القارئ أن يجزم بأنّ هذا الناقد أو ذاك نموذج لغويّ لأنّهم في الحقيقة قد خلطوا بين هذه الأمور جميعاً، ومن ثمّ فإنّ كتاباً نقدياً واحداً قد يجيئ

¹ - إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006، ص: 429.

² - عبد الملك مرتاض: الكتابة من موقع العدم، ص: 40.

³ - عبد السلام مرسلې: تجليات التراث في الخطاب السيميائي، ص: 145.

ليحوي بين دفتيه نماذج للنظريات اللغوية والبلاغية والدينية والمنطقية، جنباً إلى جنب، ممزوجة ومتداخلة، وأحياناً في نسيج يصعب استتال خيط واحد منه، إلا إذا كان الهدف هو تمزيقه أو الاستغناء عنه¹. من هذا، فإن أحكام "عبد الملك مرتاض" بشأن "الجاحظ" و"ابن خلدون" ذاتية، لا تقلل من شأن هذا ولا تعلي من شأن ذاك، ولا ترفع من قيمة الحادثة، كما لا تقلل من قيمة التراث.

الاتجاه الثالث:

يلمس الدارس في هذا الموقف طرفين، أحدهما يدعو إلى الجمع بين اللفظ والمعنى، ويمثله ابن قتيبة (ت. 276هـ) وقدامة بن جعفر (ت. 337هـ)، وأما الآخر فيدعو إلى الوحدة بين اللفظ والمعنى، ويمثله ابن طباطبا العلوي (ت. 322هـ) وابن رشيق (ت. 456هـ). والدعوة ههنا إلى الجمع أو الوحدة بين طرفي هذه الثنائية لدى هؤلاء نلفيها متميزة من حيث الرؤية والهدف. ولنا أن نقف عند كليهما بالشرح والتوضيح.

يرى الطرف الأول في الجمع بين اللفظ والمعنى مقياساً للبلاغة وميزاناً للقيمة الفنية، وأن الشعر يسمو بسموّهما، وينخفض تبعاً لهما². إن المساواة بين عنصري هذه الثنائية التي ناد بها هذا الطرف، تكشف للدارس أن اللفظ والمعنى حسن وقبح، وحسب الصفة التي يتحلّى بها كل عنصر يرفع من قيمته أو يحطّ. ومن خلال هذه النظرة بنى ابن قتيبة في كتابه (الشعر والشعراء) فكرته الداعية لتقسيم الشعر إلى أربعة أضرب، هي:

- 1- ضرب حسن لفظه وجاد معناه.
- 2- ضرب حسن لفظه وحلا، فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.
- 3- ضرب منه جاد معناه، وقصرت ألفاضه.

¹ - أحمد طاهر حسين: حول روافد النقد الأدبي عند العرب (نظرة تحليل وتأسيس) مجلة فصول، العدد الأول، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، 1985، وينظر كذلك: هامل بن عيسى: واقع الخطاب السيميائي في النقد الأدبي الجزائري، رسالة ماجستير (مخطوط)، قسم اللغة العربية وآدابها، وهران، 2005، ص: 111.

² - ينظر: محمد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي - رؤية قرآنية، ص: 30.

4- ضرب منه تأخر معناه، وتأخر لفظه.¹

يتجلى منهج ابن قتيبة بخصوص هذه المسألة في رؤيته المساوية بين عنصريهما، فهو لا ينحاز لأحدهما على حساب الآخر؛ إذ لا نجده يعلي من شأن أحدهما على نظيره، ولا يقلل من قيمة أي منهما. وعليه، فإن الشيخ يتبنى منهجا محايدا في طرحه في اعتبار عنصرا هذه الثنائية "يتعرضان معا للجودة والقبح، ولا مزية لأحدهما على الآخر، ولا استثناء بالأولوية لأحد القسمين، فقد يكون اللفظ حسناً وكذلك المعنى، وقد يتساويان في القبح، وقد يفترقان"².

إنّ النظرة المحايدة في التعامل مع اللفظ والمعنى التي ذهب إليها ابن قتيبة، وجدت دعماً ومساندتها من قبل قدامة ابن جعفر من خلال رؤيته التوافقية مع طرح ابن قتيبة. فهو في تعامله مع ثنائية اللفظ والمعنى في كتابه (نقد الشعر)، يجعل عنصريهما قسيمين في تحمل مظاهر القبح وملاحم الجودة فيما أورده من آراء في عيوب الألفاظ والمعاني³.

أما الطرف الثاني من هذا الاتجاه، فإنه يرى بالمطابقة بين اللفظ والمعنى؛ ذلك لأنّ انتلافهما يشكّل وحدة، فابن طباطبا العلوي ومن بعده ابن رشيق القيرواني يعتبرانهما شيئاً واحداً متلازماً ملازمة الروح للجسد. ويذهب كلاهما إلى تصوّر علاقة الانتلاف بين اللفظ والمعنى في القصيدة على نحو الروح والجسد. وعليه، فمن الاستحالة بمكان الفصل بينهما، فهما كما الوجهين للعملة واحدة. هذا ما يحاول ابن طباطبا توضيحه بقوله: "والكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه [...]" للكلام جسد وروح، فجسده النطق وروحه معناه⁴. وتماشياً مع هذا القول، يرى ابن رشيق أنّ "اللفظ جسم وروحه معناه، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه

¹ - ينظر: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تح. البروفيسور دي غوين، مطبعة بريل، ليدن، 1902 ص.ص: 7-9. وينظر كذلك: محمد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي - رؤية قرآنية-، ص: 30.

² - محمد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي - رؤية قرآنية-، ص: 30.

³ - ينظر: قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تح. البروفيسور: س. بونيبارك، مطبعة بريل، ليدن، 1956، ص.ص: 194-214. وينظر: محمد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي - رؤية قرآنية-، ص: 30.

⁴ - ابن طباطبا، أبو الحسن محمد: عيار الشعر، تح. طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، 1965، ص: 11.

د. مرسلې عبد السلام: مسألة اللفظ والمعنى في ميزان النقد - قراءة في الموقف النقدي لعبد الملك مرتاض -.

ويقوى بقوته، فإذا سلم واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه [...] فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ موثلاً لا فائدة فيه¹.

تأسيساً على هذين القولين، يخلص الدّارس إلى الفكرة الدّاعية للوحدة بين اللفظ والمعنى، وفكرة صاحبي هذا الطرف تعتمد المطابقة في تناول، وتبرز العلاقة الجامعة بينهما؛ التي لا يمكننا قطعها أو فصل طرفي ثنائيتها. هذا التصوّر المنهجي الذي تشكّل في مهد النقد العربي القديم، لاق صدًى كبيراً وحضوراً طيباً في البحوث اللسانية والسيمائية؛ التي تدعو إلى المؤالفة بين الدّوال ومدلولاتها والفصل بينهما ضرب من المستحيل.

لقد تلقّف النّقاد العرب المحدثون هذه الفكرة، ونسجوا من حولها أبحاثاً لما وجدوا ما ذهب إليه الأقدمون، يندرج فعلاً في صميم الطروحات التي روّجت لها النظريات الغربية الحديثة. وكل هؤلاء يؤكّدون أنّ اللفظ والمعنى حقيقتان متماسكتان، يستحيل الفصل القيمة الفنية بينهما، ومردّد ذلك يرجعه أحمد الشايب لـ "شدة الارتباط بين المادة والصورة أو بين اللفظ والمعنى، أو بين الفكرة والعاطفة من ناحية، والخيال واللفظ من ناحية ثانية، إذ كان هذان صورة لذينك، وأي تغيير في المادة يستتبع نظيره في الصورة والعكس صحيح"².

وفي السياق ذاته، يدعو ناقد آخر الباحثين إلى وجوب النأي عن المفاضلة بينهما بغير وجه حقّ، والاحتكام إلى المناصفة بينهما، والتي إذا ما تمّت تنعكس بالإيجاب على العمل الأدبي وقيّمته الفنية³. وعلى نفس الشاكلة يؤكّد شوقي ضيف على تواشج العلاقة بين اللفظ والمعنى بالقول: "فليس هناك محتوى وصورة، بل هما شيء واحد، ووحدة واحدة، إذ تتجمع في نفس الأديب الفنان مجموعة من الأحاسيس ويأخذ تصويرها بعبارات يتم بها عمل نموذج أدبي، [...]".

¹ - ابن الرشيقي، أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001، ص: 112.

² - أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، مطبعة السعادة، القاهرة، 1968م، ص: 246.

³ - بدوي طبانة: دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، مطبعة مخيمر، القاهرة، 1954، ص: 138 - 139.

د. مرسلې عبد السلام: مسألة اللفظ والمعنى في ميزان النقد - قراءة في الموقف النقدي لعبد الملك مرتاض -.

فهو يعبر عن الجانبين جميعاً مرة واحدة، وليساً هما جانبين، بل هما شيء واحد، أو جوهر واحد ممتزج متلاحم، ولا يتم نموذج فني بأحدهما دون الآخر...¹.

لم يتحاش الخطاب النقدي الجزائري هذه المسألة النقدية، بل وقف عندها بعض الباحثين، حيث تناولوها بالتنظير والمناقشة استناداً على آراء النقاد العرب القدامى، وعلى ما جدّ في ساحة النقد الأدبي الحديث والمعاصر من أطاريح لها صلة بالمسألة. هذه الأخيرة التي توقّف عندها الموروث الفكري العربي القديم - كما أسلفنا الذكر -، كانت حاضرة بشكل واضح في النقد الشكلائي الحديث، من ذلك فهي التفاتة حدائية تجعل من النصّ الأدبي سردياً كان أم شعرياً لحمّة واحدة، دفعت بالباحث الناقد عبد الملك مرتاض في مرحلة ما بعد الحداثة إلى مراعاة النصّ الأدبي في شموليته، حاسماً بذلك مسألة اللفظ والمعنى من خلال اصطناعه منهجاً مركّباً، فنراه يصرّح بلغة صارمة لمّا حاول مقارنة نص "حمال بغداد" المأخوذ من حكايات "ألف ليلة وليلة" بقوله: "...أروني برّبكم لفظاً واحداً ورد في نص من النصوص ولا مضمون له، وكيف يجوز التّعامل مع جسم لا روح فيه؟ ثمّ كيف يمكن الزّعم أنّ اللفظ فضلة في رأي بعض النّقاد المعنويين والاجتماعيين، وأنّ المعنى فضلة في رأي الشكلانيين والبنويين الذين لم يكن موقفهم، فيما يبدو، إلّا ضرباً من ردّ الفعل المتطرّف؟ والحقّ أنّ لا هؤلاء ولا أولئك ولا آخرون محقّون، وأولى لنا أن ننشد منهجاً شمولياً"².

والدّارس ههنا، يجد في قناعة مرتاض ما يتوافق تماماً مع آراء النقاد القدماء، ولنا في موقف ابن طباطبا، وابن رشيق القيرواني خير مثال فيما يتعلّق بمسألة الائتلاف بين اللفظ والمعنى، فمناشدة الباحث عبد الملك مرتاض للمنهج المركّب في معالجة النصّ الأدبي جعلته يتعامل مع الإبداع ككلّ متكامل (لفظاً ومعنى)، بحيث يستطيع الانطلاق من لفظه إلى معناه، كما يستطيع الانطلاق من معناه إلى لفظه في حركة مستمرة دون أن يحدث ذلك خلاً منهجياً في فهم

¹ - شوقي ضيف: في النقد الأدبي، مطابع دار المعارف بمصر، القاهرة، 1966، ص.ص: 163-165.

² - عبد الملك مرتاض: ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية "حمال بغداد"، ص: 16.

النص، وبهذا استطاع أن يقرأ النص - كما ذكرنا سابقاً - بمنهج شمولي¹، متناولاً إياه من مستويات مختلفة. وهي القناعة التي انتهى إليها مرتاض في مرحلته الأخيرة من مساره النقدي.

وإذ نحن هنا، سنأخذ كتاب (أ/ي) كنموذج لإبراز ما ذهبنا إليه من صورة الائتلاف بين اللفظ والمعنى في النقد عند "عبد الملك مرتاض"، ويتجلى ذلك على سبيل المثال في الفصل الثاني حين سلط الضوء على طبيعة البنية في النص.

فلقد رصد الناقد في قصيدة "أين ليلاي" لـ "محمد العيد" ألفاظاً وعبارات موحية بمعانيها لما وقف عند المعجم الفني أو القاموس اللغوي كما يراه البعض، مبيناً أن النص الأدبي لم يكن له أن يرقى إلى مستوى الأدبية إلا بتوافر معجم فني خاص به، يميزه عن غيره من النصوص.

فهناك من يتعامل مع النص على أساس التنقيب عن الألفاظ ورصدها دون البحث فيما تحمله من معاني ودلالات، وهناك من يغوص فيه ليستخلص جملة من النتائج تفضي به الكشف عن مراكز الثقل النصي في هذا المعجم. هذا ما يراه الناقد "عبد الملك مرتاض" مناسباً حيث يقول: "ونحن نميل إلى اعتبار هذا الضرب من الدراسة من أساسيات الطرائق التي تفضي إلى فهم النص وإدراك بعض أسرارها الكامنة وراء اللغة المستعملة؛ وإنه فاصل بين النظرة الانطباعية أو الذوقية التي لا تخلو من فجاجة، والتي كانت سائدة منذ زمن، لدى دراسة أي نص أدبي ما، والرؤية الجديدة التي نحاول جهدنا ترسيخها في تقاليد البحث عن هوية النص والكشف عما في طياته من مكان...²".

إن المهتم، بالنتائج النقدي لـ "عبد الملك مرتاض" يتوصل إلى أنه في دراساته للنصوص السردية أو الشعرية يتناول المعجم الفني، الذي يسهب في الشرح من حوله، ويغوص في مكان النص للكشف عن خباياه بالاعتماد على ما يلاحظه وما يحصيه. فقد استنتج أن نص "أين ليلاي"

¹ - من بين النماذج التي أرست أسس المنهج الشمولي، في المشروع النقدي المرتاضي، نجد: كتاب "ألف ليلة وليلة"، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية "جمال بغداد"، وكتاب "أ.ي" دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لـ محمد العيد، وكتاب تحليل الخطاب السردية، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق"...

² - عبد الملك مرتاض: (أ/ي)، ص: 73.

د. مرسلې عبد السلام: مسألة اللفظ والمعنى في ميزان النقد - قراءة في الموقف النقدي لعبد الملك مرتاض -.

يقوم على محورين اثنين: أما الأول فقد اشتمل على الألفاظ التالية: "ليلى، المحبين، القلب، عشق، الزين، التعلق، الطيوف، ما ليلى؟، لم تصل مهجات فديناها، قلوبا علقناها، ليلى". وهي مواد لغوية جامدة، ازدهرت باحتمالها معاني الحب والعشق والصبابة. وأما المحور الثاني: فقد رصد فيه الناقد الألفاظ التالية: "الحيلولة، البين، الدين، اتصلت القلب نارها، الحين، الترويع بالبين، الدعاء على البين، بكاء العيون، تذراف الدموع، الاحتكام على الصدى العابت... ليثبت أنها جميعا مواد لغوية جامدة، حييت بالإستعمال، وشحنت بمعاني البين والعذاب. من خلال رصد وإحصاء الناقد لمفردات النص الشعري تبين له أن الشاعر انتقى هذه الألفاظ بعناية ونسجها فأبدع فيها، فهو من جهة يتصيد الألفاظ المناسبة، ومن جهة أخرى يريد لها معاني. فأضحت بذلك المفردة (لفظا ومعنى) وجهين لعملة واحدة، استطاع الناقد إبرازها في هذا النص الشعري.

والملاحظ حين يقابل بين المحورين اللذين رصدهما الناقد يجد صراعا بين دلالات المحور الأول والثاني. وقد نتج عن هذا الصراع انصهار بين ألفاظ هذين المحورين التي تولدت عنه شحنة دلالية في النص ككل من أوله إلى آخره، وهي اليأس والأمل.

إن ما قام به الناقد من ملاحظات وإحصائيات على المعجم الفني (القاموس اللغوي) للنص، مكّنه من الكشف عن مركز الثقل النصي الذي يتمثل في اللفظ "ليلى" كونها "المتحكمة في كل علاقة دلالية بين التساؤلات المثارة (أين)، والعين، والقلب الهاوي، والبين الواقع، والدين المعلق، والبكاء على هذه الشبكة من المعاني التي لم تفض إلى بلوغ الغاية من ليلى التي تظل كأنها مستحيلة المنال"¹، فأضحى اللفظ "ليلى" هو "الأسطورة" و"الموضوع" و"القيمة" و"الحقيقة" جميعا.

¹ - عبد الملك مرتاض: (أ، ي)، ص: 75.

خلاصة القول:

لقد حسم الناقد الجزائري موقفه تجاه مسألة اللفظ والمعنى؛ إذ بعدما تشبّع بالطرح المنهجي ما بعد الحداثي، يجده الدّارس يسعى إلى دحض الفكرة المنادية بالفصل بين اللفظ والمعنى، وتفضيل أحدهما على الآخر. فهاهو الباحث عبد الملك مرتاض ينتقد طرح "جان كوهين" في معرض حديثه عن عملية الكتابة، واعتبر أنّ "القول بانفصال الأفكار عن الألفاظ [...]"، ليس قولاً مسلماً¹، وهي دعوة صريحة بضرورة ائتلافهما، انطلاقاً من تضافر شبكة من الأجهزة ترى في مطابقة اللفظ والمعنى حتمية لا بدّ منها، "وإلاّ فماذا كانت الجدوى من وراء قبوع الأفكار في عالم العدم، لوما الألفاظ التي كستها، ثمّ جلّتها وأخرجتها إلى الوجود؟ ثمّ ماذا كانت تكون الجدوى من وراء ألفاظ طائرة شاردة، غير منتظمة، قابضة في بطون المعاجم وهي في أصلها مجتزئة بدلالاتها الأولى لوما الأفكار التي تتيح لها أن تكون؟..."². هذه الأسئلة الحيرى، التي تعكس الفلق المعرفي للباحث الحداثي، الذي يتوق باستمرار إلى مراجعة أدواته المنهجية وتحديثها كل حين تماشياً مع ما جدّ في الساحة النقدية، هي التي دفعت بـ"مرتاض" إلى عدّ النصّ الأدبي نثرياً كان أو شعرياً كتلة متماسكة، فصرامة المناهج النصّانية التي أعملها الباحث، أملت عليه تناول النصّ الأدبي تناولاً كلياً، معتبرة إيّاه لحمة واحدة، يستحيل فصل أجزائه بعضها عن بعض، وهو ما سمح له في أثناء معالجته للأثر الأدبي، أن يلج إليه من خارجه إلى داخله أو ينطلق من داخله إلى خارجه دونما إحداث خلل منهجي يذكر.

مكتبة البحث:

- شوقي، ضيف: في الأدب والنقد، دار المعارف، القاهرة، 1999.
- شوقي، ضيف: في النقد الأدبي، مطابع دار المعارف بمصر، القاهرة، 1966.

¹ - عبد الملك مرتاض: نظرية النصّ الأدبي، ص: 133.

² - المرجع نفسه، ص: 133.

د. مرسلې عبد السلام: مسألة اللفظ والمعنى في ميزان النقد - قراءة في الموقف النقدي لعبد الملك مرتاض -.

- عقاق، قادة: في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي، مخبر النقد والدراسات الأدبية واللسانية، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، سيدي بلعباس، مكتبة الرشاد للطبع والتوزيع، الجزائر، 1425هـ-2004م.
- ابن الرشيقي، أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967.
- ابن طباطبا، أبو الحسن محمد: عيار الشعر، تح. طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، 1965.
- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تح. البروفيسور دي غوين، مطبعة بريل، ليدن، 1902.
- إحسان، عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، تح. عبد السلام هارون، ج3، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1385هـ-1965.
- الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، تحقيق: الدكتور هلموت ريتتر، مطبعة وزارة المعارف، استانبول، 1945م.
- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تح. محمد رضوان الداية وفايز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، ط2، 1407هـ-1987.
- السد، نور الدين: الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج2، دار هومة للنشر، الجزائر، 1997..
- الشايب، أحمد: أصول النقد الأدبي، مطبعة السعادة، القاهرة، 1968م.
- الصغير، محمد حسين علي: نظرية النقد العربي (رؤية قرآنية معاصرة)، موسوعة الدراسات القرآنية (9)، دار المؤرخ العربي، بيروت-لبنان، (دت).
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله: كتاب الصناعتين، تح. علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1971.

د. مرسلې عبد السلام: مسألة اللفظ والمعنى في ميزان النقد - قراءة في الموقف النقدي لعبد الملك مرتاض -.

- النعمان، طارق: اللفظ والمعنى بين الايدولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1994.
- حسين، أحمد طاهر: حول روافد النقد الأدبي عند العرب (نظرة تحليل وتأصيل) مجلة فصول، العدد الأول، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، 1985.
- خمري، حسين: الظاهرة الشعرية العربية (الحضور والغياب)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001.
- زرال، صلاح الدين: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، 1429 هـ - 2008م.
- زوين، علي: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، 1986.
- صمود، حمادي: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره، إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، 1981.
- طبانة، بدوي: دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، مطبعة مخيمر، القاهرة، 1954.
- عباس، محمد: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1999.
- عبد العزيز، حمودة: المرايا المقعرة (نحو نظرية نقدية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، ع272، أغسطس 2001.
- قدامة، بن جعفر: نقد الشعر، تح. البروفيسور: س. بونيبارك، مطبعة بريل، ليدن، 1956.
- مرتاض، عبد الملك: أ/ي، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد آل خليفة، د.م.ج، الجزائر 1992.
- مرتاض، عبد الملك: ألف ليلة وليلة تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.

د. مرسلې عبد السلام: مسألة اللفظ والمعنى في ميزان النقد - قراءة في الموقف النقدي لعبد الملك مرتاض -.

- مرتاض، عبد الملك: الكتابة من موقع العدم، مساءلات حول نظرية الكتابة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2003.
- مرتاض، عبد الملك: نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- مرتاض، عبد الملك: بنية الخطاب الشعري (دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية)، دار الحداثة، لبنان، بيروت، ط1، 1986.
- مرتاض، عبد الملك: في نظرية النقد، متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.
- مرتاض، عبد الملك: نظرية القراءة، (تأسيس للنظرية العامة للقراءة)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2003.
- مرسلې، عبد السلام: تجليات التراث في الخطاب السيميائي عند عبد الملك مرتاض، أطروحة ماجستير (مخطوط)، قسم اللغة العربية وآدابها، المركز الجامعي د. مولاي الطاهر، سعيدة، 2006-2007.
- هامل، بن عيسى: واقع الخطاب السيميائي في النقد الأدبي الجزائري، رسالة ماجستير (مخطوط)، قسم اللغة العربية وآدابها، وهران، 2005.